٣ – أومنُ بالإنسان !

للأستاذ عبد المنعم خلاف

نظرة واسعة — لمن الحياة ؟ — ممثل مجهول ... — زواج الفكر بالمادة — أعماق النفس هى أعماق الكون — الحياة هى الانسان — الباقيات — أمومة الأخلاق وأبوة العلوم — نوعان من الرجال — المكازتان ...

فى السماء : كل نجم عليه غشاء سرمدى من السكون ... ولو ألقيت نظرة على النجوم والكواكب لم تر شيئاً إلا لمحة عينك أنت واختلاج ضوء يكاد يكون من خداع النظر ...

وفى الأرض : كل شىء يسير فى حركات محدودة وسنن مطردة وتكاد لا تسمع إلا أصوات هبوات الريح أو لطمات الموج أو أصواتاً تظهر من تلاقى الريح بالأشياء أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح أن تلحقها بمزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ، أو بهدير الأمواج ذلك الصوت الواحد المكرر على توالى الأزمان .

ولا ترى إلا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار ، وربيع وخريف ، وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع وأرض تبلع ، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك ...

تلك هى الحياة فى الأرض من غير الإنسان ... لا تجديد فى أساليبها ولا تنويع إلا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار والجند البيض والحمر فى السفوح والجبال ... وإلا ما تنقله الرياح والمياه فى دوراتها من مكان إلى مكان ... وإلا ما توزعه قوى الطبيعة بالكيال الواقى والوزن الواسع الكريم . فلا يضاف للطبيعة شىء لم يكن منها ، ولا يتقلقل فيها شىء من موضعه ، ولا ينقح فيها شىء يستحق التنقيح

إذاً لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التى تدار ، والحيوان الآبد والداجن والأزهار والثمار والأنهار والجبال وألوان الشفق فى الأصائل والأسحار ؟ . أهو للحمير والقرود والنمور والثعالب والفيلة والآساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والغربان والحشرات والديدان ؟ !

كلا ! ليس فى هؤلاء من يصح أن يفقه شيئاً من ذلك الإبداع والجمال ولا أن يسند إليه الدور الأول فى رواية الحياة ... وإنما هذه مخلوقات على هامش الحياة ... من أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ودواب لحمل الأدوات والآلات إليه ... أو إن شئت فقل إن هؤلاء « حروف » فى أبجدية « الأسماء » التى يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التى يمثلها ممثل مجهول ... ممثل لا بد أن يكون حراً يذهب فى أى اتجاه على المسرح ، ويجدد فى التمثيل والإخراج كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ويتمثل فيه الابتكار الذى يجعل الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظار من سكان السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين ... ويحشر كل شىء فى رواياته ويضع عقله وقلبه على كل شىء ...

وَمنْ هذا غير الإنسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على الواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل أفئدة من الناس تهوى إلى خدمة شىء ، وأفئدة أخرى تهوى لخدمة شىء آخر كى لا يتعطل أفق من آفاق الحياة من غير نظر إليه وتفرس فيه . ولكى يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها ، وتتبين حكمته المخبوءة وراء أسرارها ولنطلع المقول على فنه وإحاطة علمه بكل شىء ...

قانون المزاوجة هنا أيضاً : فبين فكر الإنسان وبين أسرار المادة زوجية تنتج علماً أو فناً أو إحساساً أو شعوراً ... « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون »

والإنسان كالقيثارة ذات الأوتار الكثيرة ... تظل صامتة ساكنة حتى تضربها يد الأقدار بالملومات والأحزان والأفراح فيظهر ما فى أوتارها من نغم عجيب ...

فالأرض من غير الإنسان هى ذلك البيت الصامت وذلك الدولاب الدائر وتلك الدورات الأبدية التى لا غاية لها ولا بد تلق فيضها وتنتفع بقواها . ولا اطراد فى ارتقائها ولا تغير فى أوضاعها ولا زيادة فيها

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة ؟ وأين الباب إلى ما هو أعظم وأوسع ؟

إن عمق النفس هو الذى يوحى بعظمة الدنيا وتنوع الناظر فإذا خرج المرء من نفسه العميقة تبين له أن الحياة فى وحدة قوانينها وتشابه دوراتها ومقاطعها ما هى إلا شىء محدود ممل مسئم ... ولكن الإنسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه وعرف الطريق إلى الكمالات والصور التى لا تتناهى لما عرف باطن نفسه وخرج إلى عالم أرحب وأوسع لما أطال النظر فى نفسه

وما عرفت الإنسانية جلال الله ولا تبينت صفاته وتوضحت لها حكمته ، إلا من عقل الإنسان الفائق الذى أطال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة وأطال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة وزاوج بين هذه وتلك

وهذا يسلمنا إلى أن نقول : إن الإنسان هو الحياة الدنيا بالمعنى المعقد المركب غير المتناهى . . .

ولا حد للحياة إذا التقت الطبيعة بالعقل الإنسانى الذكى الحساس المفكر . . .

ولا دخل للطبيعة إلا فى تقديم المواد الخام إلى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع المدنى . . .

ويخيل إلى أن فى روحه ميراثاً خفياً من نظام الجنة وجمالها وراحتها واتساعها ، وهو يحاول بعد طرده منها أن يوجدها فى الأرض . . . والله معه !

وإذا كان كل شىء فى هذا الوجود يرمز إلى معنى بسيط فإن النوع الإنسانى يرمز إلى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروباً بعضها فى بعض كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه من الواحد إلى آخر العدد إن كان للعدد آخر . . .

فالإنسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ليحدث من التقاء كل شىء بكل شىء منفردين نتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض نتائج وصور معقدة لا يمكن تقريبها إلا للعقول الكبيرة التى لا تكاد تدركها إلا بالوهم أو بالذهن الرياضى سياد الأخيلة والأحلام والفروض

* * *

وعمار عالم الفكر بتلك المعانى الناتجة عنه هو وتنوعها إلى ما لا نهاية أمره معجب ! وخصوصاً إذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرءوس البشرية ، معدومة فى غيرها ، إلا إذا خرجت وتجسدت وتشكلت فى قميص مادى ...

ترى هل هى ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهل هى على تناقضها واختلاف الانفعالات المتصلة بها ذات قيم عنده ؟ أم هى ملاء وصلوات لذلك النوع المدلل فى الأرض تموت معه وليس لها فى سجل الوجود أثر بعده ؟

إن تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التى تتداول عقول الإنسانية كاف وحده أن يقذف فى قلوبنا الإيمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ويجنى ذلك القطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية فى الإنسان

أسرتان اثنتان من أفكار الإنسان هما الباقيتان فيما أرى على وجه الزمان فى سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية وأسرة الأفكار العلمية التجريبية ...

والأسرة الأولى هى التى سددته إلى غايته وهيأته للخلافة فى الأرض ، وتحدرت فى أعصابه ، وأيقظته إلى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه ... وإلى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للانسان ونزل إليه وحيها

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها ما يوافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أعنت ثقته بنفسه وأظهرت آثار وجوده وجعلته متصرفاً فى المادة بما لا طاقة لغيره من الأنواع به ...

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية وإتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد إلى المثل العليا وبناء سيادة الإنسان ...

وقد استصبحت الإنسانية بأنوار الأنبياء بناة الأخلاق قبل أن تستصبح بأنوار العلماء بناة القرون ... وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة تنمو فى رعايتها الطفولة وتشب وترشد . وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة ...

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الإنسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين إلى إدراك سموها وتفردها ، الراسمين لها أسس قيمها الثابتة ،

الزائدين بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء، المعتزلين لها أسرار السماء بالإخلاص والبكاء ... وهم لا شك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود الكثافات والسدود والقيود المادية، بل ارحبوا وافضوا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان

والنوع الثانى هو نوع المخترعين الذين يزيدون فى وسائل راحة الأجسام ويخففون المشقات والآلام وينمون قوة الخلق والتقليد فى يد الإنسان ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع والتوشيع والافتنان

ولئن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض فينبغى ألا ينسى المفكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الإنسانية والآخذ بيد البشرية حتى بلغت دور الرشد. وهو الأكبر خدمة والأبعد أثراً، إذ هو الذى بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها وأيقظها لذاتها وأرشدها لمدخرات روحها وعقلها، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع وما تنتظر

وستستحيل كل بركات العلم إلى آفات ونقم وشرور إذا لم تتذكر الإنسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقيم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده، وما قتلوا وصلبوا فى سبيل إعلائه وتشييده

* * *

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبد يذهب جفاء ... هو باطل لا حقيقة له ثابتة داعة. هو صور عابرة لتسلية النوع فى جهاده وتخفيف إعناته

ويخيل إلىّ حتى درجة الظن ... أن فكر الإنسان لا يجدى عليه شيئاً إلا حين يتجه إلى فتح جديد فى عالم أخلاقه أو فى عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها، ولقط أسرارها واستخدامها، وأنه ما وضع فى الحياة موضعاً أصيلاً إلا فى هذا الموضع ...

فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوى الذى ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل الطفولة وتفرغه للعمل للثمر الدائم فى المادة

ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها وتنتج له بركات من السماء والارض وترمحه وترقيه وتفرغه للعبادة بالفكر والعمل

أما فترات التفلسف النظرى والهيام وراء البدوات والفروض فتلك لا محصول وراءها أو هناك محصول ضئيل

* * *

هاتان عصوان لا يستطيع الإنسان أن يمشى بدونهما خطوة واحدة، وإنما يدور على نفسه كما كان فى العصور الأولى ولو كان فى القرن العشرين ...

ولا يمشى بإحداها ويترك الأخرى إلا أصيب بالعرج والتعثر

فأمم الأخلاق بدون علم وعمل فى المادة أمم بائدة مستضعفة معطلة القوى، محدودة الحياة، مسلوبة الحقوق.

وأمم العلم بدون أخلاق سباع ضارية يأكل بعضها بعضاً وتأكل غيرها، ويتجه كل علمها وفنها إلى خدمة الشر والإثم وتستحيل بركات العلم فيها إلى نقم، كما يتجه كل العلم والهندسة فى الشوكة إلى قتها الحادة، وكما يستحيل الدسم فى الطعام إلى سم إذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه.

عبد المنعم خلاف

الرسالة فى سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء. أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملاً مقسطاً أو غير مقسط. ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١، ولن يمد الأجل بعد ذلك.